أحداث عراقية منسية ليس هذا أوان إثارتها (٢ من ٢)

عبدالناصر يدعم رئاسة عبدالرحمن عارف

أمين هويدي *

■ بعد أسابيع من محاولة انقلاب ايلول (سبتمبر) ١٩٦٥ غادرت بغداد ومنصبي كسفير فيها، فقد عينت وزيراً للإرشاد القومي، ولن أنسى ما حييت الفترة الجميلة والصعبة التي عشتها في بغداد كسفير والتي تجعلني في شوق دائم الى اهل العراق، من زاخو في الشمال الى البصرة في الجنوب، فقد أحببتهم في رضاهم وأحببتهم في ثورتهم.

عدت الى بغداد بعد ذلك بشهور كعضو في وفد رأسه المشير عبدالحكيم عامر للتعزية في وفاة الرئيس عبدالسلام عارف في حادث طائرة قيل إنه من صنع البشر وقيل إنه من صنع القدر ولم يقطع أحد برأيي في القضية حتى الآن، وفي خلال الزيارة حدثت قصة غريبة أحكيها كما عشتها، اضافة لما كُتب، وربما تصحيحاً لما نُشر:

أخبار الطائرة التي استقلها الرئيس عارف ومرافقوه كانت منقطعة طوال الليل، اتجه الرئيس بطائرته الى الجنوب في إحدى رحلاته التفتيشية التي - كما أعرف - لم يكن يتوافر لها ترتيبات الأمن الكافية على رغم كثرة الصيادين المتربصين. في الصباح الباكر اتصل بي الرئيس عبدالناصر في منزلي وسألني عن أخبار الطائرة ولما أجبته بالأخبار قال: «يا أمين... عبدالسلام مات وشبع موت» وانكسر صوته. بعد ثوان أكمل: «قررت ارسال وفد تعزية اليوم برئاسة المشير وستكون فيه»، وأعطاني موعداً أمرّ عليه فيه بداره في منشية البكري، ارسلت حقيبتي الى المطار لتشحن في الطائرة الخاصة وذهبت في الموعد المحدد لمقابلة الرئيس. كان في الحديقة وحييته وجلست، وكانت الاخبار أكدت وفاة الرئيس عارف. وبعد أن سيطر الرئيس على نفسه قال: «سيحضرالمشير بعد نصف ساعة يتوجه بعدها الى المطار وستكون في رفقته. أنت أعلم بالعراق من الجميع. هناك الآن فراغ في السلطة. نحن لا نريد شيئاً من العراق إلا مجرد حكم لا يعادينا، نحن لا نتكلم في وحدة او اتحاد فهذا مرفوض، نريد مجرد تعاون. ونحن على استعداد للمساعدة. امرت سامي شرف - وهو سكرتير الرئيس للمعلومات - بأن يجهز لك شفرة خاصة للاتصال بي كما كانت الحال معك وأنت سفير هناك. اذاً رأيت ما تريد إبلاغه لي لا تتردد وسيصلني فوراً». وأخذ الرئيس يتحدث في مواضيع شتى وهو ينظر في ساعته. ولم يحضر المشير في موعده ومرت دقائق كثيرة ولم يحضر، وكانت علامات الضيق الشديد تظهر على وجه عبدالناصر بمرور الوقت وأخيراً هب واقفاً وهو يقول: «يا أخي لا أعرف ماذا أفعل مع المشير بتاعكم؟ حتى المواعيد لم يعد يحترمها. توجه الى المطار وانتظرْه حتى يحضر. مع السلامة» شعرت أن العلاقة بين الرجلين ليست في أحسن حالاتها.

أخذت مغلف الشفرة وتوجهت الى المطار، واخيراً حضر المشير ومعه عبدالمجيد فريد وعبدالحميد السراج (استقر في القاهرة كلاجئ سياسي بعد أن تم تهريبه من سجن المزة في دمشق بعد الانفصال).

كان استقبالنا حزيناً في مطار بغداد وكان على رأس المستقبلين الصديق الدكتور عبدالرحمن البزاز رئيس الوزراء وبعض قادة الجيش، واستقر بنا المقام في قصر بغداد وهو قصر الضيافة، واثناء الاتصالات التي قمت بها تبين أن هناك تيارين: تيار يريد أن ينتهز الفرصة لتحويل الحكم العسكري الى حكم مدني فيشغل الدكتور البزاز رئاسة الجمهورية، وتيار يريد استمرار الحكم العسكري، وكان عدم الاتفاق ينذر ببدء صراعات على السلطة، كان عبدالرحمن عارف رئيس الاركان في موسكو وفي طريقه للوصول بعد ساعات وكان الرجل مقبولاً في اوساط القادة العسكريين وعززنا هذا الاتجاه، فالرجل كان طيباً غير ضار، فهو حلّ سيئ من حلول اسوأ ونال هذا الحل الاستحسان حتى قبل وصول عبدالرحمن الى بغداد. في مساء يوم الوصول الى بغداد دعاني الوزير المفوض الذي حل محلي في بغداد سمير عباسي الى عشاء، كان قلقاً منفعلاً، والى طبق المشويات أخبرني أن المشير كلفه ارسال برقية الى القاهرة اعطى فيها الضوء الأخضر لوصول عارف عبدالرزاق، صاحب الانقلاب المبتور، في أول ضوء اليوم التالي، لأن الفراغ كامل يسمح بتنفيذ خطة وصوله هو وجماعته للاستيلاء على الحكم!! وجدت أن ذلك مستحيل الحدوث وأنه سيدمر العلاقات المصرية - العراقية.

لم نكمل عشاءنا، واصطحبت سمير عباسي الى السفارة وارسلت برقية الى الرئيس بإلغاء السفر المزمع لعارف عبدالرزاق من دون ذكر أسباب، ولما عُرضت على الرئيس بعد ايقاظه من النوم أمر بإلغاء سفر عبدالرزاق الى بغداد.

سهرت طوال الليل وأنا أنظر الى السماء متوقعاً وصول طائرة عبدالرزاق ووقوع الكارثة لأني لم أكن واثقاً من وصول برقيتي الى الرئيس لظروف غير متوقعة.

طلع الصباح ولم تصل الطائرة وشكرت الله.

استدعاني المشير لأتناول معه طعام الافطار في حجرته واستقبلني وهو يحلق ذقنه، والى المائدة حدق في وجهي وقال: «أنا كنت أدبر أمراً ولكنه لم يتم.ابن... مين اللي ألغى ذلك؟». وكرر ذلك مرات وعينه في عيني وأنا أتناول طعامي من دون رد فعل: «أمر إيه يا سيادة المشير؟!»، فيرد: «بكرة تعرف، ولكن، والله، لو تأكدت من اسم الفاعل سأقطع رقبته». وأظن أنه خمن، لكنه لم يقطع ويتأكد.

واستقر الرأي على اختيار اللواء عبدالرحمن عارف ليخلف شقيقه. الأخ يخلف شقيقه والابن يخلف والده، وهذا أمر اصبح طبيعياً في الجمهوريات العربية.

ذهبت أنا وعبدالمجيد فريد الى المطار لاستقبال عبدالرحمن عارف وكان يبكي بشدة ومنديله على عينيه، واصطحبناه الى العربة ونحن نعزيه وهو يشتد بكاؤه، وفي خبث قال عبدالمجيد فريد: «اتفضل اركب يا سيادة الرئيس»، فتمهل عبدالرحمن في سيره يريد أن يتأكد. وكرر عبدالمجيد ما قال: «اتفضل اركب يا سيادة الرئيس»، ومن دون أن يسأل عن التفاصيل جفّت دموعه واختفى المنديل الأبيض وشد من قامته. ويا سبحان الله تغيرت ملامح وجهه وركب العربة وتبعناه في عربتنا السوداء المكتوب عليها «وفد الضيافة».

ما قلناه حتى الآن قاله القادة العراقيون في كتاباتهم، فربما نكون اضفنا اشياء او شرحنا اشياء أو صححنا اشياء، لكن ما قلناه وما قالوه يثير قضيتين مهمتين: قضية خاصة بالقوات المسلحة واخرى خاصة بالسلطة في البلاد العربية، وأظن أن الاصلاح الحقيقي لا يتم إلا من طريقهما لأن الاصلاح لا يمكن ان يتم قطعة قطعة، ولا يمكن ان يتم في النصف الأسفل من الدولة ولكن يجب ان يبدأ في النصف الأعلى، فالقدرة هي الأساس التي يُبنى فوقها الاصلاح طوبة طوبة.

القوات المسلحة العربية وغير العربية قنبلة شديدة الانفجار تنفجر في وجه من يلعب بها او يلعب فيها، وهي أداة من أدوات تحقيق الامن القومي للبلاد، فاذا تعدل هذا الواجب ليصبح التأمين الذاتي لصاحب القرار او السلطة تفشى الفساد والضعف والانحلال فيها. ففرق كبير بين أن يكون واجبها تأمين الشعب والدولة وبين أن يكون واجبها تأمين السلطة والحزب. ورأينا تجربة الجيش العقائدي في العراق، فقد فتح الطريق أمام الولاء للحزب وان على حساب الكفاية ورأينا أنه حينما انهار الحزب انهارت القوات المسلحة بطريقة غير مسبوقة في التاريخ. القوات المسلحة كائن حي له رأس يقود، وجسم يقاتل ويردع، فإذا عطب الرأس شل الجسم، لذلك فإن أهم ما تهدف اليه الاستراتيجية هو هزيمة الرأس وحينئذ يحدث الانهيار.

القوات المسلحة أعقد جهاز في الدولة، لا تُعطى قيادته على مختلف المستويات إلا للطبقة الممتازة من القادة. والقيادة فن وعلم، لكن العلم لا يخلقها ابداً بل يعزز الفن والموهبة. سئل ديفيد بن غوريون «ما هو أخطر منصب في اسرائيل؟» وكان رده: «قائد الفصيلة فهو الذي يحمي الحلم الصهيوني».

وقضية العلاقة بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية في البلاد العربية مثيرة وخطيرة لأنها مبهمة ويحيطها الغموض، والحديث عنها يدخل في المناطق الرمادية غير المأمونة. على أي حال فالنواحي الاستراتيجية في الدولة لا يجوز تركها للجنرالات وحدهم، فهم جزء من القيادة السياسية للدولة. أما عن السلطة فالكتابات التي نشرت تفرض سؤالا ملحاً هو: هل السلطة غاية أم وسيلة؟ فالوصول الى السلطة كغرض هو انقلاب لأنه تغيير اشخاص باشخاص، يعني محمد احمد، مكان احمد محمد وهنا تهتز أمور الدولة وتكون القوات المسلحة هي الأداة الوحيدة الرئيسية لتغيير وتبادل السلطة، وتصبح هذه القوات أداة للتأمين الذاتي ودرعاً للسلطة، وتفقد قيمتها كأداة لتحقيق الأمن القومي ولحماية الدولة والشعب من أي تهديدات خارجية.

رأينا كيف كانت المصلحة الشخصية هدفاً لتولي السلطة والقفز عليها من دون برنامج تحقيقه للنهوض بمستوى الشعب. والمصيبة ان يفخر هؤلاء الذين كتبوا بما فعلوه، علماً أنه هدم للدولة لا بناء لها.

تبادل السلطة وتعاقبها شرط أساسي لتحقيق الديموقراطية التي ينادي بها الجميع. القضيتان حساستان: كيف نبني السلطة لتكون وسيلة لتحقيق الرفاهية للشعب وكيف ننظم القوات المسلحة لتكون احدى أدوات تحقيق الأمن القومي ولا تكون الأداة الوحيدة لتحقيق التأمين الذاتي؟

* كاتب، مصري. وزير دفاع سابق... وسبق نشر الحلقة الاولى من المقال اول من امس.

الإرهاب ومناهج التعليم ومعوقات وراثة النفوذ الاوروبي

علي الشامي *

■ تعمّق الأميركيون، وهم في سياق سعيهم الى وراثة النفوذ الأوروبي في العالم الاسلامي، في دراسة العائق الثالث، أي القرآن او الاسلام، وتوصلوا الى رؤية، أجمع على جدواها الساسة والمثقفون، تقوم على توظيف هذا العائق بدل إزاحته. وهكذا تمت إضافة الاسلام، في النصّ والممارسة، الى قائمة العوائق التي نصبها الغرب وبقيادة الولايات المتحدة الأميركية في مواجهة الشيوعية والنفوذ السوفياتي على امتداد المرحلة المسماة «الحرب الباردة».

وبهذا المعنى، كان الاسلام عائقاً في وجه طرف وسلاحاً بيد الطرف الآخر، ولم يكن هذا الأخير مكتفياً بتأويل محدد للاسلام. ومن وجهة نظره، يمكن توظيف الاسلام لمصلحة الغرب، بصرف النظر عن تجلياته، في أنظمة الحكم ومناهج التعليم وتمثلات الهوية في افكار ومسلكيات وصولاً الى موضعته في جماعات تنهل منه مسوّغات جهادها ضد الكفار في الداخل والخارج، من دون ان تغفل تحديد «الداخل» بما هو تيارات قومية او وحدوية او استقلالية، او «الخارج» بما هو الاتحاد السوفياتي ومن يدور في فلكه من أنظمة وأحزاب وتيارات...

ومنذ الحرب العالمية الثانية الى نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي، لم تكن الحكومات الاميركية المتعاقبة ترى الى الاسلام بما هو عائق ينبغي ازاحته، وإنما بالعكس تماماً. اذ وجدت فيه ضالّتها وأتقنت استثمارها. وبالتالي، لم تكن هناك ثمة حاجة الى الحديث عن الديموقراطية وحقوق الانسان وتناقض الاسلام مع روح العصر، طالما ان التشدد في تطبيق تعاليم الاسلام لا يحول دون تحقيق المصالح الأميركية في العالم الاسلامي بعامة، وفي مناطق التنافس على الثروة والنفوذ في شكل خاص. بل اكثر من ذلك، تتطلب المصالح اللجوء الى الاسلام بهدف صناعة ارهاب يخدمها ويستنزف امكانات المتربّصين بها.

وهكذا، اشرفت الولايات المتحدة الأميركية على تأسيس الارهاب الاسلامي وتمويله وتدريبه وتسليحه لمواجهة الاحتلال السوفياتي في افغانستان. ولم تكن مناهج التعليم الديني ومؤسساته متناقضة مع شرعة حقوق الانسان والديموقراطية واقتصاد السوق وعصر العولمة والتقدم التقني... طالما انها تعطي ثمارها في الجهاد ضد الاعداء المشتركين للمؤمنين بألوهية واحدة؟

وفجأة أصبح الاسلام عائقاً وتعاظمت الحاجة الأميركية الى إزاحته. وبقدرة قادر، احتل الاسلام موقع الشيوعية كتهديد للحضارة والعالم الحر. بل انه اصبح كذلك قبل ان تتحول وجهة الارهاب الى عكس ما تشتهيه سفن مؤسّسيه والعرّاب، وكأنما التحول أصبح تكتيكاً للعرّاب الأميركي نفسه وهو في سياق بسط استراتيجية التفرّد بالسيطرة على العالم بذريعة تخليصه من «فزّاعة» اسلامية منزلي، لا علاقة له ولا دور في مجريات الحال والأحوال. وفيه ايضاً تندرج تهمة الارهاب الملقاة على عاتق كل ممانعة او مقاومة لمشروع السيطرة الغربية المقبلة على أسنّة الرماح الأميركية، ومثلها مقاومة المشروع الصهيوني الذي بات يطمح الى اهداف تتجاوز حدود فلسطين الى المنطقة برمتها.

وبصرف النظر عن الغايات الكامنة في هذا التركيز الاميركي على مناهج التعليم في العالمين العربي والاسلامي، فإن التركيز نفسه يستبطن وعياً اميركياً بقدرة الاسلام على عرقلة مشاريع التدخل والسيطرة على ثروات هذين العالمين ومصالحهما. وبما ان مناهج التعليم وثيقة الصلة بهوية كل دولة او شعب ومصالحه، فإن المطالبين بتغيير المناهج في العالمين العربي والاسلامي لم يقرأوا جيداً، على ما يبدو، عبارة رئيس اميركي سابق يقول فيها: «من يتدخل في مناهجنا الدراسية سنعتبره بمثابة اعلان حرب علينا...».

> **اذا كان الغاء التعليم الديني شرطاً لنجاح التنمية والديموقراطية، فهل نجح هذا الالغاء في تحقيق النجاح المذكور في دول اسلامية عملت بموجبه، مثل تركيا أو تونس؟ وبصرف النظر عن نوعية لمناهج المعتمدة ومدى تطابق التعليم الديني مع متغيرات العصر، فإن الامر يندرج في سياق تأهيل العرب والمسلمين، دولاً وشعوباً ومجتمعات للدخول في العصر الأميركي والتطور العالمي المسوك بواسطة القطب الأميركي ولمصلحته وحده دون سواه.**

وفي اللحظة التي يظهر القرآن، مرة اخرى، عائقاً امام الاستراتيجية الأميركية، يستخلص «دانيال بايبس»، مثقف الصقور في الادارة الاميركية ورئيس «منتدى الشرق الأوسط»، حاجة هذه الاستراتيجية الى إزاحته، فيستعيد مقولات راجت في الحقبة الاستعمارية وضلّت طريقها في الحرب الباردة، فاكتشفها كمن اكتشف البارود. ففي رأيه، اصبحت الازاحة ضرورية، لأن الاسلام وحده «من بين الديانات التوحيدية الثلاث الكبرى في العالم الذي لم يتطور ليصبح عصرياً». ومن دون ان يصل الى اليأس، يجزم بأن «المسلمين لا يعرفون ان يواكبوا التطور العالمي...».

بيد ان الحرب من اجل إزاحة مصدر الافكار تظل اكثر تعقيداً وصعوبة من الحرب للسيطرة على مصادر الطاقة. وعلى عكس النفط، الذي يمكن تحديد مكانه وحجمه ودوره، فإن الاسلام يحول دون اختزاله في وجه واحد من وجوهه المتنوعة، لا سيما انه يظهر في تجليات مختلفة. فقد يكون الاسلام ايديولوجية لنظام ودولة مثلما يكون مرجعاً تأصيلياً لمقاومة مسلحة او ممانعة مجتمعية. وفي حين يرى اليه البعض بما هو تبرير للضعف والتبعية، يرى اليه البعض الآخر بما هو تحصين للسيادة والحقوق.

وبينما يعتبره البعض قادراً على مواكبة العصر، يكتفي البعض الآخر بصورته الأولى كما كانت عليه في عهد التنزيل وذروة الحضارة. وبصرف النظر عن صوابية القول باختلاف التجليات، فإن تمظهراته تكاد تكون واحدة في الارادة ومنظومة القيم والثقافة والهوية والمصير، بمعزل عن حسابات الدول والمذاهب وموازين القوى. وهنا بالتحديد يظهر الاسلام عائقاً تنبغي ازاحته ويفسّر الغايات الاميركية من وضعه في مرمى التصويب في لحظة بسط السيطرة على مصادر الطاقة.

ان تطوير مناهج التعليم مسألة تخص كل دولة ووفق مصالحها، تماماً مثلما تؤكد الدعوات المتناقضة معها حقيقة ان الاهتمام الأميركي بمناهج التعليم في العالم الاسلامي يظهر بمثابة اعلان حرب على هذا العالم، من دون أسلحة وحتى بواسطة الأسلحة اذا اقتضى الأمر، من دون أن ننسى أن الدعوة الى اصلاح مناهج التعليم في العالم الإسلامي انما تأتي مدعومة بانتشار مكثف للقوة العسكرية الأميركية وما يمكن أن ينتهي اليه هذا الانتشار من احتلال وإعادة صوغ الأنظمة والمصالح والعقول، وبخاصة بعد الحرب الاميركية ضد العراق. وبالتالي، فإن الدوافع السياسية والاقتصادية لهذه الدعوة الاصلاحية باتت مكشوفة أكثر من أية دعوة أخرى دولية أو أوروبية. وتنكشف الدوافع في شكل واضح من خلال التركيز على التعليم الديني دون سواه، ومن خلال التركيز على التعليم الديني الإسلامي فقط دون غيره من التعاليم الدينية الأخرى المنتشرة في جميع أنحاء العالم.

وبناء على ما تقدم، فإن التساؤلات التالية تصبح في غاية الأهمية من أجل اجراء ربط عملي بين دوافع الدعوة الأميركية وتركيزها على الإسلام وبين وضعية مناهج التعليم وضرورة اصلاحها وتطويرها كقضية وطنية وضرورة انمائية:

١ - اذا كانت عملية تطوير مناهج التعليم ضرورة للتقدم، وهي كذلك، لماذا دعمت الحكومات الغربية والأميركية هذه المناهج طوال المراحل السابقة وعرقلت تطورها بما يخدم حاجات المعنيين فيها بالدرجة الأولى؟

٢ - اذا كان التعليم الديني مصدراً للارهاب والتطرف، لماذا لم يكن كذلك عندما كانت الادارة الأميركية ترعى الإرهاب الاسلامي وتحميه وتموّله ضد خصومها.

٣ - اذا كان الغاء التعليم الديني شرطاً لنجاح التنمية والتطور والديموقراطية، فهل نجح هذا الالغاء في تحقيق النجاح المذكور في الدول الاسلامية التي عملت بموجبه، مثل تركيا أو تونس؟

وبصرف النظر عن نوعية المناهج المعتمدة ومدى تطابق التعليم الديني مع متغيرات العصر، فإن تغيير مناهج التعليم وتهميش التعليم الديني وبالتالي الإسلام يندرج في سياق تأهيل العرب والمسلمين، دولاً وشعوباً ومجتمعات للدخول في العصر الأميركي والتطور العالمي المسوك بواسطة القطب الأميركي ولمصلحته وحده دون سواه. وبالتالي، فإن التركيز على التعليم الديني الإسلامي خصوصاً، ومناهج التعليم في شكل عام، ومن وجهة نظر أميركية صرفة، يستهدف، كما أصبح واضحاً، تطويق الاسلام بما هو عامل في تقوية الإحساس بالهوية والندية، وعائق أمام انتشار الثقافة الغربية ومدى قابليتها على إعادة صوغ شخصية المسلم بما يؤهله للتأقلم مع استراتيجية السيطرة على الثروات والأسواق..

وما يلفت في الدعوة الأميركية لإصلاح مناهج التعليم في العالمين العربي والإسلامي، والتركيز المحموم على الإسلام والتعليم الديني، انها لم تتطرق الى التعليم الديني السائد لدى الدول غير الإسلامية. فالدين، واستتباعاً التعليم الديني، شكّل، ولا يزال، عاملاً حاسماً من عوامل تشكيل خصوصيات الجماعات والدول، وأسهم في تطورها الحضاري في مراحل مختلفة. وبالتالي، فإن تخصيص الإسلام بالقصور في مواكبة التطور العالمي يعطي شهادة لقدرة الأديان الأخرى على مواكبة التطور ويترك المسلمين وحدهم بين خيار التمسك بالإسلام أو خيار البقاء خارج التطور! وذلك على رغم ان الاسلام كان في أساس التطور والبناء الحضاري والعلمي الذي عرفته البشرية على امتداد العصور الوسطى وبفضله استطاعت أوروبا أن تعرف نهضتها بعد عصور الظلام ومحاكم التفتيش خلال فترة السيطرة المطلقة للكنيسة والبابوية؟

وإذا كان الدين، كل دين، وليس الإسلام فقط، لا ينسجم مع التطور الحاصل في العالم، وعلى جميع المستويات وفي الميادين كافة، فلماذا التركيز على الإسلام وحده؟ وفي هذا السياق، نشير الى أن التيار الديني المحافظ صاحب القرار الأول في الإدارة الأميركية الحالية، يمثّل أو يكاد يكون الناطق الوحيد المطالب بإلغاء التعليم الديني في العالم الإسلامي. وهو الذي رعى، ويرعى، الزيادة المتواصلة في مدارس التعليم الديني في الولايات المتحدة الأميركية نفسها، حيث تطور عدد هذه المدارس من ١٢٣ مدرسة تضم ١٣ ألف طالب سنة ١٩٥٥، الى ١٨ ألف مدرسة تضم أكثر من مليوني طالب سنة ١٩٨٠، وقد تضاعف هذا العدد الى درجة أصبحت فيها مؤسسات الإشراف على التعليم الديني والتيار الديني المحافظ صاحبة التأثير القوي في أكثر من خمسين مليون مواطن اميركي.

وبهذا المعنى أيضاً، تجاهلت الإدارة الأميركية دور التعليم الديني في إسرائيل في تغذية التعصب والتطرف وتبرير الإبادة. ومع ذلك، تصرّ الإدارة الأميركية على توصيف إسرائيل بمثابة واحة للديموقراطية

* أستاذ في الجامعة اللبنانية.

ألف وجه ألف عام

«حياتي في التحليل النفسي» لفرويد: سيرة ذاتية من خلال المسار العلمي

■ «يحق لي إذاً أن أقول، وأنا ألقي نظرة استرجاعية على النصيب من العمل الذي قيّض لي أن أؤديه في حياتي، أنني شققت طرقاً عدة وحفزت على أمور كثيرة يمكن أن تتمخض عن شيء ما في المستقبل. ولا يسعني أنا نفسي أن أعرف سلفاً: هل سيكون هذا الشيء كثيراً أو ضئيلاً؟ ولكني أستطيع في المقابل، أن أعرب عن رجائي في أن أكون شققت أمام المعرفة الإنسانية الطريق الى تقدم مهم».

بهذه العبارات ختم سيغموند فرويد ذلك الكتاب الصغير الذي نشره في العام ١٩٢٥، بالألمانية أول الأمر، في لايبزيغ، والذي كان - على الأرجح - الكتاب الوحيد الذي وضعه خلال تلك المرحلة من حياته كاستجابة لطلب ناشر. فالحال ان الكتاب وعنوانه «حياتي والتحليل النفسي»، أتى عبارة عن «سيرة ذاتية» صاغها فرويد تلبية لدعوة من ناشر كان يدر في ذلك الحين سلسلة كتب تحت عنوان «راهن الطب من خلال السير الذاتية». ومع هذا، على رغم وضوح الهدف من السلسلة وتفضيل الناشر لأن يركز الكاتب، حقاً، على سيرته الذاتية، فإن فرويد آثر، كما يقول جورج طرابيشي مترجم النصّ الى العربية، أن «يقدم اللحظة الموضوعية على اللحظة الشخصية، فيولي الاعتبار الأول في سيرته، للتحليل النفسي، لا لأحداث حياته» ومن ثم، يضيف طرابيشي «فإن قارئ هذه الشهادة التي دونها واحد من كبار صانعي القرن العشرين، لن يقرأ وقائع حياته وتفاصيلها، بقدر ما سيقرأ قصة التحليل النفسي وتطور مفاهيمه الأساسية».

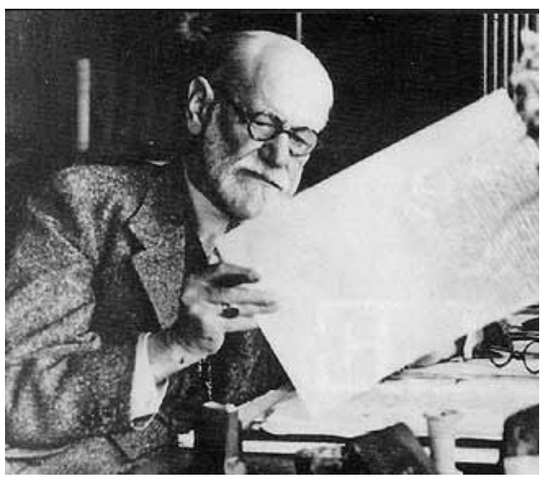

سيغموند فرويد: نوع من السيرة الذاتية.

● ومهما يكن من الأمر، فإن فرويد الذي يمهد لنصّه بصفحة توضيحية يختمها قائلاً: «بما انني لا أود أن أناقض نفسي، ولا أن أسرف في تكرار ما سبق لي قوله، فسيكون لزاماً علي أن أحاول الوصول الى صيغة جديدة تجمع بين العرضين الذاتي والموضوعي، أي بين السيرة الذاتية والتاريخ»، فرويد هذا يبدأ منذ الفصل الأول بسرد وقائع ولادته - في فريبرغ بموراڤيا التشيكية، العام ١٨٥٦ - وانتقاله مع أسرته الى فيينا وهو في الرابعة من عمره، موضحاً لنا أنه كان الأول في صفوفه طوال سنوات دراسته الابتدائية السبع... وهكذا يروح فرويد في البداية واصفاً لنا تلك التفاصيل التي باتت معروفة حول دراسته وعلاقته بأبيه، وأول عهده بالجامعة والخيبة التي واتته هناك إذ «كان لزاماً عليّ أن أشعر بأنني أدنى من الآخرين، ومنبوذ عن قوميتهم، لأنني يهودي». والمهم ان المقام سوف يستقر بفرويد، مرة أخرى وبعد تجوال ودراسة في المانيا وفرنسا، اعتباراً من العام ١٨٨٦، في فيينا حيث «تزوجت من الفتاة التي أقامت على انتظاري أكثر من أربع سنوات في مدينة نائية». ومنذ ذلك الحين يتضاءل اهتمام فرويد بسيرته الشخصية، ليصبح نصه أشبه بسرد لتاريخ حركة التحليل النفسي التي بدأت تنمو على يديه، وتصبح جزءاً من الحركة الطبية في شكل عام. ولئن كان فرويد، بين ١٨٨٦ و١٨٩١ قد استنكف عن نشر أية دراسة إذ «كنت مأخوذاً بضرورات تثبيت مواقع قدمي في مهنتي الجديدة وتأمين وجودي المادي ومعيشة أسرتي الآخذة في التنامي بسرعة»، فإنه في العام ١٨٩١ نشر أول أبحاثه عن شلل الأطفال المخي. وكان في ذلك انطلاقته كمؤلف ومحاضر، وبداية شهرته الصميمة، خصوصاً أنه تضلّع في دراسة حالات الهستيريا وبدأ يكتب عن اكتشافاته، حتى وإن كان لا يزال مهتماً - في ذلك الحين - بالتنويم المغناطيسي كوسيلة للعلاج.

● ويفيدنا فرويد هنا بأن تلك المرحلة من حياته كانت هي التي مكنته، أبحاثه، فيها من أن يربط الهستيريا بالمسألة الجنسية، وما كنت أدرك، في ذلك الحين، أنني بردّي الهستيريا الى الجنسية قد رجعت ادراجي الى أقدم أزمنة الطب، وجددت الصلة بتراث أفلاطون. وأنا ما فطنت الى ذلك إلا بعد مطالعتي لمقال كتبه هافلوك ايليس في وقت لاحق». والحال أن هذه البدايات كانت هي التي مكنت فرويد خلال السنوات اللاحقة من التحرر من العديد من أفكاره القديمة وصولاً الى تركيز أفكاره حول التحليل النفسي، إذ غاص في مسائل مثل الكبت والحالات الجنسية لدى الأطفال. والطريف أن فرويد يفيدنا هنا أنه اقترف في ذلك الحين خطأ فظيعاً «كان قميناً بأن يرتد أثره سريعاً بأوخم العواقب على جهادي كله: فتحت تأثير الطريقة التي كنت أتبعها آنئذ، كان معظم مرضاي يستعيدون مشاهد من طفولتهم يدور موضوعها من حول اغواء شخص راشد لهم(...) وكنت أصدق هذه المعلومات وتراءى لي من ثم أنني اكتشف، في هذه الاغواءات المبكرة مصادر العصاب اللاحق(...) بيد أني حين اضطررت الى الإقرار بأن مشاهد الاغواء تلك لم تقع قط، وبأنها لم تكن سوى تخييلات لدى مرضاي، ربما أنا من فرضها عليهم، تخبطت لحين من الزمن في الحيرة والبلبلة...».

● وهكذا على هذا النحو يواصل فرويد حديثه عن أخطائه واكتشافاته، في شكل تكاد فيه حياتي الشخصية تختفي وراءه تماماً. وبهذه الطريقة يصل الى كشف ما توصل اليه في شأن الليبيدو والأحلام والذهانات، كطبيب معالج... ولكن لاحقاً كمنظّر، خلال تلك الفترة التي تحول فيها الى رجل عام، ومؤسس لتيارات وصار له تلاميذ وخصوم، وبدأ يشرف على المؤتمرات والاماميات التي تضم مدرسة فيينا وغيرها، وتقيم مؤتمرات هارت في ذلك الحين علامة أساسية من علامات افتتاح القرن العشرين. وهنا كان فرويد قد بلغ الثالثة والخمسين من عمره وأكثر ومع هذا «كنت أشعر بالشباب والعافية»، حين زار الولايات المتحدة والتقى الفيلسوف ويليام جيمس الذي ترك لقاؤه معه تأثيراً دائماً فيه. وهنا يحدثنا فرويد - وبقسط كبير من الحيادية - عما أصاب حركة التحليل النفسي ودوره فيها، خلال السنوات التالية، ولا سيما على يد تلميذين زميلين له، كان قبل ذلك من أقرب علماء التحليل النفسي اليه فيروي. «وقعت في أوروبا، بين عامي ١٩١١ و١٩١٣، حركتان انشقاقيتان عن التحليل النفسي، قادهما شخصان كانا لعبا الى ذلك الحين دوراً مرموقاً في العلم النفسي: الفريد آدلر وكارل يونغ. وقد بدت هاتان الحركتان بالغتي الخطورة، وسرعان ما انضوى تحت لوائهما عدد كبير من الأشخاص. بيد انهما ما كانتا تدينان بقوتهما لجوهرهما الخاص، بل لكونهما افسحتا في المجال - وهذا أمر له اغراؤه - للتملص من نتائج التحليل النفسي التي استشعر بعضهم انها جارحة للمشاعر(...) وقد حاول يونغ أن ينتقل بالوقائع التحليلية الى صعيد التجريد اللاشخصي، من دون أن يقيم اعتباراً لتاريخ الفرد، آملاً من وراء ذلك ان يوفر على نفسه حتمية الاعتراف بالجنسية الطفلية وبعقدة أوديب(...) أما آدلر فقد بدا انه يشط الى أبعد من ذلك عن التحليل النفسي، إذ أنكر دفعة واحدة، الجنسية وأرجع تكوين الطبع والعصاب معاً الى علة وحيدة وهي ارادة القوة (السلطة) لدى الناس وحاجتهم الى التعويض عن دونيتهم...».

● واثر ذلك، في شيء من الاختصار يقول لنا فرويد، كاستنتاج، ان تاريخ التحليل النفسي بالنسبة اليه ينقسم الى مرحلتين: في أولاهما كنت وحيداً وأتحمل عبء كل العمل المطلوب انجازه(...) وفي المرحلة الثانية، والتي تمتد منذ ذلك الحين (١٩٠٧) الى يومنا الحاضر (١٩٢٥) ما انفكت مساهمات تلاميذي وأعواني تزداد أهمية بحيث يسعني اليوم، إذ ينذرني مرض خطير (سرطان الفك) بنهايتي الغريبة أن أفكر، في هدوء داخلي كبير، باحتمال توقيف نشاطي الخاص».

● لكن سيغموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) واصل حياته لنحو عقد ونصف العقد من السنين بعد ذلك، كما انه اعاد النظر في ذلك النص مرة أخرى في العام ١٩٣٥. وهو في التذييل الذي كتبه عند ذاك، ذكر القراء بأنه - على أية حال - كان أكثر صراحة «في بعض مؤلفاتي الأخرى، في الحديث عن حياتي الخاصة»، خاصاً بالذكر كتباً مثل «تفسير الأحلام» و«علم نفس أمراض الحياة اليومية».

ابراهيم العريس